عن ادوات للتحقق ، تصبح الذات هنا متمردة ، ذات في حركة وبحث . المرحلة الثالثة تتجلى حين ترصد الذات واقعها من بعد ، رصد من خلال مسافة ، وتعرف كيف تجد الادوات للخلاص من الواقع ومرارته ، فتكون شخصية المناضل تتسم خلال عملية تطور مستمرة .

يبرز برتولينو في روايته امرا جديرا بالثناء هو رسمه للخلفية الاجتماعية البائسة والشروط اللاانسانية التي انبتت جذوة الثورة : « وعندما تمول ربح الشتاء الزمهريرية فوق سقوف الاكواخ القصديرية الملبسة بالوحل ، كان يوسف واخواته يتكورون تحت اللحاف ويحتمون بأبويهما هربا من البرد ، وكانت الشمعة تئن تحت وطأة الريح ، عندها الوالد يتحدث عن بيت يافا بجدرانه السميكة ، وغرفه التي تستحم في الشمس ، ونوافذه الواسعة المطلة على بيارة البرتقال المزدانة بثمار مستديرة صفراء ذهبية ، والجائمة على عتبة البحر . عندها كان يوسف ينام حالما بأنه جنرال جيش متسق من البرتقال يتبختر في عرض عسكري » .

صورة الوطن هنا محذرا ومهددا ، فاستعادة الوطن ليس اذن مجرد استعادة هوية قومية ، بل استعادة انسية فقدت .

ويظهر برتولينو ايضا التغير الكيفي الذي طرأ على الشعب الفلسطيني ككل . فقبل ظهور المقاومة ، كان المتحدثون باسم الشعب ، شعب المخيمات ، لا ينتمون فعلا اليه ، فهم « متخمون ومترهلون » ، لا يحسنون الا الاكل والخطب الرنانة والدعوة الى « رمي اليهود في البحر » . اما بعد ظهور المقاومة فنرى ان القيادة تنبع من الشعب وتعبر عن مطامحه ، وان الشعارات المطروحة تخلصت من بدائيتها وتخلفها . ونرى هنا تطورا ايديولوجيا يمس مفهوم العالم عند الفلسطينيين ، فالمرأة اصبحت انسانا مناضلا وليس كيانا سلبيا هشا ، وبدأ الفرد يؤكد ذاته متخطيا قيود التربية العائلية المحدودة الافق .

يعرض برتولينو هذا في ٣٩٥ صفحة بدقة تقرب الى التقرير اكثر منه الى الرواية من خلال شخصيات حية ورصد لدقائق الحياة اليومية لدى الفدائيين . والرواية زاخرة بالدقائق التي تعبر عن فهم كامل للعمل الفلسطيني ، فمن الصور التي لا تنسى صورة يوسف الحامل على كتفيه « أسيطورة فلسطين » وزيارته لعائلته ، صورة أبو رائد وهو يلعب بالافاعي ثم يظهر كيف تقتل وتطبخ وتؤكل ، صورته وهو يزدرد الضفادع النيئة . ومن الصور الجميلة في الرواية صورة وفد « الثوار — السياح » من الفرنسيات اللواتي ينظرن الى المخيم كـ « فرجة » ويجلسن نصف عراة في مخيم تدريب معزول . عند ذلك يصرخ ابو رائد « لن اسمح لهؤلاء المومسات ان يخربن القاعدة » .

ومما لا شك فيه ان مدخل الرواية كان آسرا ، فنرى البطل يدور في مركز دائرة محيطها منظمات فدائية متعددة ، وهو عليه ان يرى ويسمع ويعاين قبل ان ينتقل من المركز ويأخذ مكانه في المحيط .

والرواية تنتهي في احداث ايلول ، حيث يموت الابطال وتذهب سكين الجزار بعيدا عن القلب الفلسطيني ، عندها ينتكس حلم عزيز الانتظار « وفي ٢٨ ايلول مساء ، وفي النهار ذاته والساعة عينها لفظ ابو رائد انفاسه مع عبد الناصر الذي صعقته ازمة قلبية . مصير غريب قرب الرجلين اللذين كان بينهما مسافة لا يمكن اجتيازها » .

ربما يستشرف هنا برتولينو — وهو المتعاطف والمتحمس مع شعبنا — حلما جديدا اكثر صلابة لن تجتثه سكين جلاد اخر مهما كان حجمها .

اذا كان برتولينو يعطي صورة للحقيقة التاريخية بواسطة عمل روائي ، فان جورجي كاردوس يعود بدوره ليعطي صورة ضد — الحقيقة التاريخية(١) . وقد كانت القضية الفلسطينية منذ اغتصاب فلسطين وحتى اليوم تنوس بين محورين : الحقيقة — وضد — الحقيقة . وكثيرا ما كانت الحقيقة تقبع منسية تحت اكوام من التضليل تنثرها بشكل متعمد ترسانة الاعلام الصهيونية .

والتناظر بين رواية برتولينو ورواية كاردوس (أيام ابراهام بوجاتير السبعة) كاملا من حيث ان كلا الروائيين يبني روايته بمسادة تاريخية ، بأشخاص — مفاهيم يوظفون لشرح وعرض القاع التاريخية لمشكلة . الفرق ان مادة برتولينو التاريخية تعيد بناء الحقيقة التاريخية وتصوبها ، في حين ان الاخر يعيد انتاج التضليل التاريخي بشكل روائي . ان كاردوس يصور الواقع